إدوارد سعيد يتحدث مع جاكلين روز(*)

ترجمة : محمد بنزيدان
كلية الآداب والعلوم الإنسانية بنمسيك

جاكلين روز. كتقديم لهذه الأمسية، أود أن أبتدئ بنصين مقتطفين من أعز كتب إدوارد سعيد علي. الأول من كتاب "بعد السماء الأخيرة"، ويخص إجلاله الرائع للشعب الفلسطيني.

> العودة غير واردة... بعض الشيء بالنسبة للمستقبل المرتقب سيكون أفضل من الشيء كله. الجزء بدل الكل. نشاط الرحالة الذي لا ينقطع بدل الاستقرار فوق أرض محتلة. النقد بدل الاستسلام. الفلسطينيون كذات واعية فوق سهل قاحل من الاستثمارات وشهوات الاستهلاك. بطولة الغضب بدل الصحن المتسول، الاستقلال النسبي بدل صفة الزبون. الانتباه، الحذر، التركيز. للتصرف مثل الآخرين، لكن مع الاحتفاظ بالانفراد نوعا

*. استجوبت روز إدوارد سعيد على هامش مهرجان برايتن، يوم 14 ماي 1997.

ما. لحكاية القصة متقطعة، كما هي تماما.

وآخذ النص الثاني من "تفاصيل موسيقية" (*Musical Elaborations*)، والذي يحتوي تحليلها البديع للموسيقى العصرية والذي ينتهي بتمجيده لنوع من الموسيقى:

> تتميز بكون متعتها واكتشافاتها ترتكز على الحرية، على عدم فرض هوية مرخّصة... فن لا يعنى بسلطة الكاتب أو بالسلطة الاجتماعية، ولكنه نمط من التفكير يأخذ بعين الاعتبار كل الاختلاف في الممارسات الثقافية الإنسانية، بوفرة، دون قوة، وبشكل طوبوي، إذا كنا نعني بهذه الكلمة ما هو دنيوي و يمكن معرفته وبلوغه.

اخترت هذين النصين ليس فقط لأني أحبهما و لا لأعطيكم فكرة عن اهتمامات إدوارد سعيد الواسعة، ولكن ايضا لأني أعتقد أنهما يعطيان ارتساما قويا عن طبيعة عمله الإيجابية.

في "تصويرات المثقف" (*Representations of the Intelectual, 1993*)، وصف ادوارد سعيد المثقف بكونه "شخص يبهرنا بقدرته المتواصلة على المساءلة و المواجهة الفكرية" وأقل مدحا ـ أظن أنه لم يكن يتكلم عن نفسه ـ قال بأنه "يجب أن يكون مفاد كلام المثقف مزعجا، معاكسا، وغير مرضي". كانت بعض هذه النعوت تتقدمه على الطريق، لذا ارتأيت أن أبتدئ بهذين النصين حتى أعطي فكرة عن الروح الايجابية التي آمل أن تطبع هذا الحوار، والتي تميز التزامه من أجل مستقبل لا إكراه فيه، يطبعه الاختلاف و التسامح.

كما آمل أن تكون هذه الأمسية فرصة كي يرد إدوارد سعيد على بعض الانتقادات، إن لم نقل التشويهات، التي قد يثيرها هو نفسه في بعض الأحيان. هذا يهمني شخصيا. فأنا هنا هذا المساء كيهودية مؤمنة بقضية المرأة وبفكر التحليل النفسي، ولنواجه الأمر الآن، لا يبدوا أن أحدا من هذه النعوت ينطبق عليك. لذا فاني آمل أيضا أن هذه الأمسية ستتيح لنا الفرصة لإظهار أشكال غير مسبوقة للحوار عبر حواجز الاختلاف التاريخي التي كان يبدو تخطيها أمرا مستحيلا.

سؤالي الأول يخص الكتابة، فقد تكلمت عن الكتابة في معظم أعمالك، وتقول في نقطة معينة: "للإنسان الذي لم يعد يملك وطنا، تصبح الكتابة مكانا للعيش". وتقول

أيضا: "أمنية المثقف الرئيسية" ـ هذا غريب بعض الشيء ـ "أمنية المثقف الرئيسية ليس أن يكون له تأثير على العالم، لكن أن يتذكر أحد ما، في يوم من الأيام، ما كتبه المثقف، كما كتبه تماما." في "بدايات" تقول بأن السؤال الأول ـ و لهذا اخترته أنا أيضا كأول سؤال ـ هو "لم الكتابة؟ - هناك اختيار على حساب الرغبة في الكلام، في الإشارة، في الرقص". وفعلا أنت تتكلم وتشير؛ لكني لا أعلم شيئا عن الرقص.

إدوارد سعيد (يكاد لا يُسمع): لا أرقص...

ج ر: سؤالي إذا لا يخص الأشياء التي تكتب عنها ولِم اختيار هذه الأشياء، ولكن ماذا تفعل بك الكتابة؟ في اعتقادك، لم تكتب؟

إ س: حسنا، في عدة حالات، وببساطة، لأني أجد فيها متعة وشيئا مباشرا يجعلني أحس أني أدخل العالم. فأنا من الأشخاص القليلين الذين لا يستعملون الحاسوب. أستعمل القلم. قاومت كل هذه التطورات التكنولوجية فقط لأن المتعة الحقيقية في وضع قلم بحبر أسود على ورقة هي تجربة للذهن، وسيلة للتعبير عن الأفكار، محاولة للاتصال بأناس لم أكن لأتواصل معهم بطريقة أخرى. فالكتابة هي، نوعا ما، رفض للصمت الذي نعيش فيه كمواطنين عاديين غير قادرين على التغيير، في مجتمع سياسي واقتصادي تحركه قوى تفوق قوة الأفراد.

لكني أعتقد كذلك أن هناك في الكتابة تعبير عن رفض للاستسلام. فنصك حول أمنية المثقف أن يقرأ أحد كلامه، استعرته من أدورنو في وقت أحسست فيه بتدهور أوضاع الفلسطينيين، و بأن التهميش خارج سياق التطور التاريخي هو قدر لم أقبله. أحسست آنذاك أني أقوى على الأقل أن أقدم تصريحا، أن أكون شاهدا على نوع من التاريخ وأن أصيب في ذلك. أظن أنه في النهاية هذا هو التحدي الرئيسي، أن تكون مصيبا في اختيار الكلمات التي تناسب وضعا ما ولا تتغير بتغير الوضع ـ كلمات قادرة على الأقل أن تسجل رد فعل للحظة معينة كانت ستنمحي لولاها. كنت أكتب إبان اتفاقية أوسلو، حين كان الاحتفال عالميا وكان الجميع يتحدث عبر التلفاز عن هذا الحدث المزلزل، و كنت أحس عكس ذلك تماما. ظننت اللحظة سيئة، ومنذ ذلك الحين فكرت في ألا أترك الأشياء تمضي. كانت دائما تساورني شكوك حول النزعة التفكيكية (deconstruction)، ليس دائما ولكن منذ أن برزت هذه النزعة إلى الوجود. أولئك الذين يقولون بأن الأمر يتوقف على كيفية رؤيتك

للأشياء. أنا أومن بالوقائع؛ وغالبا ما تشوه الوقائع أو تهمل أو تطرز أو تخبأ أو تنسى. لذلك أضع ذلك النوع من الكتابة في أدنى مستويات ما قد نسميه بالاستسلام.

سأقول في الأخير أن الكتابة بالنسبة لي هي شيء متنوع جدا، إذ أنها تتوقف على الظرف، على الموضوع، وعلى القارئ المستهدف. فهناك أصناف من الكتابة تكون مقرونة بظرف معين وأجل محدد، كما هناك أخرى أكثر تأملا وتستغرق وقتا أطول. فإيقاع الكتابة هو إذا شيء مهم ويجب قياسه. أخاف جدا التكرار لأن في آخر الأمر لكل منا ذخيرة من الأفكار والتعابير. كنت أكتب خلال السنوات الأخيرة عمودا مرتين في الشهر لعدد من الصحف، ليس في أمريكا، ولكن في العالم العربي و أوروبا. كان أكبر تحدي هناك هو إيجاد النبرة المناسبة لكل ظرف. وهذا عسير جدا إذ يستلزم أن تكون مختلفا بالنسبة للقارئ، أن تفاجأه، و أن تضع أسئلة و تثير الشكوك. هذا حتى لا يظن الناس بأنه لا يمكن فعل أي شيء. كأستاذ و كاتب أحاول أن أحث القارئ على الاهتمام بقضايا يمكن معالجتها بالكتابة.

ج ر: من بين صورك الحية، أحتفظ بواحدة، وهي فعلا بعد أوسلو، حين كنت تحاضر في كلية الدراسات الشرقية والإفريقية لجامعة لندن. كنت واقفا في القاعة ـ كانت هذه المرة التي استعملت فيها الإشارة ـ و رسمت في الهواء الطرق التي كانت ستمر عبر الأراضي التي كانت على وشك الاستقلال. فقد أثبتت أمرا احتفظت به منذ ذلك الحين وهو العائق الاقتصادي بالنسبة للفلسطينيين لما كان يحدث. هذا يتلاءم مع حياة الناطق الذي عليه، كما أشرت إلى ذلك، أن يوفق بين الإرادة وإدراك الواقع أو الاعتراف بالقوة. لذا، الوقائع أولا، كما قلت. أرى تارة ذلك الجانب من عملك كخطة للتوعية تهدف لإدخال العقل النقدي إلى الساحة السياسية. وألمس تارة أخرى في كتاباتك، خصوصا عن الأدب والموسيقى، شغفك بالتيار الحداثي الذي، حسب تعبيرك، يشكك في مفاهيم مثل "الحقيقة" و"اليقين". هذا، كما أرى الأمر، لا يقابل قطيعة في كابتك بين ما هو ثقافي وما هو سياسي لأنك تكلمت في أحد كتاباتك السياسية عن حاجتنا لأن نكون ـ وهذا واحد من تعبيراتك المفضلة لدي ـ كأوعية مفتوحة حتى نكون واسعين كالبحر (وهذه صورة محملة بما سيفهمه العديد على أنه تلميح لسيولة الكتابة الحداثية). كيف إذا تسوي أو ترى العلاقة بين التوعية أو التنوير والمكونات الحداثية لعملك؟

إ س: كما تقترحين، فالأمران جد مختلفان في عدة حالات. إذا كنتِ تكتبين عن الحداثة بتشكيكها و خصوصا بتهكمها فأنت تتكلمين عن شيء يختلف تماما عما قام به فاعل سياسي، عما قد يعنيه استيطان سياسي أو أي مسار سياسي. لكن العلاقة بينهما تكمن ـ وقد حاولت القيام بهذا ـ في نوع من الاستكشاف والمرحلية. هذا لايعني بأنني أسعى في كتابتي عن السياسة لأن أقول بأن الأمور تستقر في حجر. ما أقوله هو نتاج مجهود أقدمه مع كل الاحتمالات بأن أكون خاطئا. يوجد في الواقع، كما في بعض الأعمال الأدبية، شيء لا يرضخ للتحليل المستقر. على سبيل المثال، قضيت فترة طويلة من حياتي الثقافية والأكاديمية في التفكير و الكتابة عن كونراد. واستخلصت أنني لا أفهم تماما هذا الكاتب، وقد لا أفهمه أبدا. باعترافي بهذا واستمراري في محاولاتي مع ذلك هي الطريقة التي تمكنني من ربط العلاقة بين النوعين من كتابتي. طبعا تختلف النبرة لأن القراء يختلفون ولأن الهدف مختلف نوعا ما. ففي الكتابة السياسية، عليك أن تكون أكثر حزما، أن تذكر الأسماء وتقول الحقائق كما تراها، وهذا له صعوباته سواء تعلق الأمر بالمنطقة التي أسكنها أو بالولايات المتحدة حيث تستطيع أن تقول ما تشاء. هناك دائما عوائق. زد على ذلك، أحس دائما أنني لا أكتب بلغتي. في الواقع لا أعرف ما هي لغتي الحقيقية. أتكلم الإنجليزية لكنني نشأت أتكلم العربية. هذا النوع من الحيرة المتعلق بمن أنت في نهاية الأمر ـ و أعتقد أن الهدف من الكتابة هو ضمنيا ألا نستقر ببساطة في وضعية ما ـ يزعزع. أحس بهذه الزعزعة وأنا أكتب رغم أن قرائي قد لا يحسون بها.

لهذا كنت دائما أشك في عدد من الأشياء أراها في نهاية الأمر متصلة. المسئولون: أعتقد بأن المسئولين يكذبون دائما. كان الصحافي الأمريكي الكبير ستون[1]، الذي كنت أعرفه جيدا في السنوات الأخيرة من حياته، ينشر مجلة صغيرة انطلاقا من بيته صار لها صدى كبيرا في واشنطن، بدءا بحقبة ايزنهاور، ومرورا بعهدي كنيدي وجونسون،

1. Isidor Feinstein Stone (1907-89) صحافي شهير من أصول يهودية روسية اشتغل في عدد كبير من الصحف والمجلات الأمريكية الشهيرة. عرف في بداية حياته بمساندته لإسرائيل ولكنه تدريجيا تحول إلى متعاطف مع الحقوق الفلسطينية. كم كان من أشد المنتقدين للحرب الأمريكية على الفيتنام في عقد السيتنيات.

وخصوصا إبان الفيتنام. كان مراسلا رائعا، شديد الصرامة تجاه طبقة السياسيين، وكان يقول أن القاعدة الأساسية للصحافي هي أن يفترض أن كل بلاغ حكومي كاذب. معظم الصحفيين ـ وهذا من كسل الصحافة في القرن العشرين ـ يكررون بلاغ الحكومة. يجب أن نعي بأن المسئولين يمثلون وضعية ما. فهم إداريون، أناس لهم نفوذ وسلطة على الآخرين الخ، وكلهم منشغلون بالحفاظ على وضعيتهم و نفوذهم. لذلك فدور المثقف، على الأقل كما أراه، هو أن يتحداهم باستمرار، أن يذكر الأسماء والوقائع.

ج ر: لكن هذا يبتعد شيئا ما عن الحداثية (Modernism) ويقترب أكثر من ذلك التوفيق بين الإرادة وإدراك الواقع.

إ س: هو كذلك، نعم.

ج ر: كتب أحد، منذ ما يقرب من خمس عشرة سنة، مقالا عن الشرق الأوسط؛ كان يتصور فيه مستقبلا فلسطينيا تبسط فيه، أنت نفسك، الراية الفلسطينية بصفتك رئيسا للدولة الجديدة. هل قرأت ذلك؟

إ س: هذا آخر شيء قد أود فعله.

ج ر: لكن إذا حدث ذلك، و بالطبع هذا لن يحدث، سيورطك في أخذ شكل من النفوذ الإداري أو التنفيذي. وقد يقال على الأقل، إذا كنت تتكلم في عالم السياسة وتقول بأن كل الآخرين يكذبون، فأنت إذا تملك الحقيقة؟ عليك إذا أن تكون في وضعية لا تثق فيها أنت بنفسك. . .

إ س: أنا لا أقول أنني أملك الحقيقة، فقط أنهم لا يملكونها. استمعت طوال حياتي لأطنان من الكذب السياسي من مختلف الأصناف، معظمه يسيء استعمال اللغة وأنا أهتم بها جدا. فأنا لا أملك الحلول التي يزعمون امتلاكها. ما في الأمر هو أنهم يخبئون الحقائق، وهذا شيء آخر، ويقدمون وعودا لا يوفون بها، ويمحون أجزاء من التاريخ لأنها مزعجة ومعقدة. أظن لابد أن نقول هذا بالضبط، ذلك لأجل شيء أكبر من نفسك، تحس أن لك علاقة به ـ شعب، قضية، الصامتون الذين لا حول لهم، المضطهدون. تأثرت بهذه الأشياء كثيرا.

الكتابة عن التيار الحداثي شيء مختلف تماما لأنها أولا مسألة خاصة. فهو نمط من التفكير والتأمل ربما أكثر غموضا. الأمر يختلف أيضا لأني أعتبر أنني أكتب حتى عن

الحداثية أو الموسيقى كمؤرخ يحاول أن يضع العمل الفني في سياق أكبر ويربطه بأشياء تبدو عادة غير متصلة به. فهو شيء مثير أن نرى في الأوبرا مثلا سياسة العصر لأنها كانت تكتب في الماضي لأجل مناسبات خاصة مع أن معظم الناس يظنونها أعمالا كلاسيكية ـ نذهب إلى الأوبرا ونرتدي البذلة وما يتبع ذلك. لكنها في الوقع كانت مناهضة وذات مساعي كثيرة كما كانت لها أهداف أخرى. وهذا ينطبق أحيانا على الأعمال الأدبية، مما يستوجب ربطها ليس فقط بوضعية ثقافية وسياسية ولكن أيضا بخصوصية حياة الكاتب.

ج ر: في "تفاصيل موسيقية" تصف "التغيرات الشريعية" لباخ على أنها "بإفراطها أكثر مما قد يتطلبه الظرف أو الحاجة، تصبح مجرد رنات موسيقية خالصة في محيط اجتماعي منعزل". كما تستعمل عبارات مثل "منغلقة على نفسها"، "خاصة"، "ملتوية على نفسها". ومع ذلك أرى بأن معظم عملك يتجلى في إرجاع أعمال الأدب والفن الثقافي إلى مسئولياتها التاريخية والسياسية. فأين "الخصوصية" في ذلك؟

إ س: حصل هناك تغيير. في الست سنوات الأخيرة، ربما بعد مرضي، أصبحت مهتما بما يطلق عليه "الأسلوب الأخير". أعني بهذا أن في حياة العديد من الكتاب، الملحنين و الرسامين، تحول له علاقة بالسن، يتجلى في نظرة جديدة تحدث في آخر مسارهم الفني. أشهر مثال هو بيتهوفن في السنوات العشر الأخيرة من عمره. كان أصما بالطبع. لكن ذلك لا يفسر حقا ما حدث. كما لو كان بيتهوفن الذي أمضى السنوات الوسطى من العقد الثاني ما بين 1810 و1816 كملحن مشهور جدا (فمثلا له أوبرا واحدة قدمت في نسختها الثالثة أمام كونغرس فيينا، وكان آنذاك أشهر ملحن في أوروبا و شخصية مرموقة بفيينا)، ينصرف فجأة عن كل ذلك. وما يتبقى هي الأعمال الأخيرة التي هي خصوصية جدا، تعنى كثيرا بالوسيلة، تحديدا بتقنية الموسيقى. بل أهم من هذا، هي أعمال غير موحدة، كالأعمال المبكرة، بقوة شخصيته و بتطور من النوع الذي يقرن عادة بشكل السوناتا. ما هناك هو، كما في مسرحيات إبسن الأخيرة، إحساس بالفنان يعود إلى نفسه ليفحص ليس فقط وسيلة فنه، بل وعمله كذلك ليكشف عن الكل. وهذا ينطبق على أعمال باخ الأخيرة، حيث لا يكتب لجمهور، لسيد، لقصر، أو لكنيسة. بل يكتب داخل مجال غريب تمزج فيه الألحان كما هو الشأن في "تغييرات شريعية". وهذا يهمني جدا.

ج ر: دعني أعود إلى مسألة الخصوصية و التحولات في كتابتك. فأنت حاليا تكتب سيرتك الذاتية. أظن أن الكل هنا يتشوق إلى سماعك و أنت تتكلم عن ذلك بعض الشيء، إن استطعت.

إ س: ليست سيرة ذاتية بالضبط. لا أريد استعمال هذه التسمية. أفضل بدل ذلك كلمة "مذكرات" لأنني أولا لست شخصية مرموقة. ليست "حياة وزمن فلان" على نحو ما يفعله السياسيون ليحكون عما حدث مثلا خلال انتخابات 1997 أو شيئا من هذا القبيل. فأنا لا أحاول أن أفسر مسارا عاما، بل أحسست أن علي أن أفهم شيئا بخصوص ماض فريد. كانت عائلتي فلسطينية طبعا، لكن كنا نبدو كما لو كنا نعيش في عالمين أو ثلاث عوالم مختلفة. عشنا في مصر. كانت أمي نصف لبنانية فعشنا في لبنان. وكان هذا كله خلال فترة الاستعمار. كانت لنا حياة ـ لأن أبي ابتكرها نوعا ما ـ مركبة وغريبة. فقد ذهبت فقط إلى مدارس استعمارية لذا أعلم، أو علمت آنذاك بقانون المصادرة (Enclosure Act). كنت أفكر فيه عندما حطت بي الطائرة. أرى هذه المراعي وأتذكر موضوعا طرح علي في المدرسة وحصلت فيه على نقطة متفوقة: "كان قانون المصادرة لسنة (لقد نسيت السنة بالضبط) شرا لابد منه. ناقش". كنت أعيش في مصر آنذاك ولو أن أحدا سألني عن نظام السقي بمصر لما استطعت أن أبوح بكلمة واحدة في هذا الشأن. وبما أن والدي كان قد عاش في الولايات المتحدة لفترة و شارك في الحرب العالمية الأولى، ورثنا، أنا وأختي، الجنسية الأمريكية. هكذا كنت إذا: فلسطيني يعيش في مصر، يحمل إسما شخصيا غريبا عن الأوساط التي كنت أتحرك فيها (إدوارد ليس إسما عربيا أصلا). أظن أن الغاية الرئيسية للمذكرات هي معرفة عواقب حياة ضيقة وخانقة عشتها كطفل، ربما لأن عائلتي كانت تعتقد أن عليها أن تحميني. كان زمنا غير مستقر؛ أنهيت مؤخرا فصلا عن سقوط فلسطين سنة 1948. فهم ما جرى أخذ مني وقتا طويلا جدا لأننا لم نكن نتكلم عن السياسة في البيت. كان والدي حتى آخر حياتهما يرفضان أن تكون لي علاقة بالسياسة. وكانا في نفس الوقت يدفعاني، بنية حسنة، في اتجاه معين وكان ميولي دائما لاتجاه آخر. فإلى حد ما المذكرات محاولة لفهم مجهود لتحرير النفس لم يكلل بالنجاح التام.

ج ر: ماذا كانا يريدانك أن تكون؟

إ س: طبيبا، أن تكون لي مهنة، أعتقد. وكانت كل اهتماماتي مضادة لذلك. كنت لفترة أحضر لأدرس الطب لكني كنت أكسر دائما الأنابيب بالمختبر ولم تكن

الدراسة تثير اهتمامي فرسبت فيها. ثم بدأت أتوجه بعد ذلك نحو السياسة وهنالك، وهذا مهم أيضا، وجدت نفسي أهتم بأجزاء أخرى من العالم أكثر من الجزء الذي كنت أقطنه. أظن أن كان ذلك بالغ الأهمية بالنسبة لي ـ نوع من حب الاستطلاع الذي اكتسبته والذي أعتقد كأستاذ أن علي أن أوصله إلى طلابي. فالأمر ليس مجرد قراءة ما يوجد في اللائحة، ولكن هي طاقة فكرية أطلقت ابتداء من تلك الحقبة الخانقة من حياتي المبكرة.

ج ر: كيف تحس وأنت تعيش في نيويورك كالناطق الرئيسي في الغرب باسم الشعب الفلسطيني؟ كيف تعيش ذلك مع الأخذ بعين الاعتبار الموقف الذي تضع نفسك فيه و المكان الذي تنتمي إليه؟

إ س: الطريق مليء بخطر الموت: فمنذ عشر سنوات أحرق مكتبي بجامعة كولومبيا. قالت لي الشرطة و موظفو التحقيقات الفيدرالي (FBI)، كان ممثل لهم يرافقني، أن الفعل كان من تدبير فرع لعصبة الدفاع اليهودية التي لازالت تقوم بتهديدات أخرى، بما في ذلك الأشياء الأكثر شيوعا كالإساءة، وأنهم قد وجدوا نفس المجموعة في الطابق السفلي للمبنى الذي أسكنه. هناك كثير من الكراهية و الغضب في نيويورك. أتذكر مثلا ذات ليلة، منذ عشرين أو خمسة و عشرين سنة، كنت قد ارتقيت إلى درجة أستاذ التعليم العالي، وكنا في تكريم لأستاذ كان سيغادر منصبه، وكان الجميع جد سكارى. فقامت زوجة زميل لي، نفسها يهودية، فأتت إلي وقالت ـ و هذا لن أنساه أبدا ـ و طبعا ما كانت لتقول ذلك لو كانت في حالتها الطبيعية لأني سبق لي أن التقيت بها في الشارع، لكن تحت تأثير الكحول أحست بالحرية فقالت: "أريد أن أتحدث معك بخصوص أفكارك يا صغيري" (لم تكن أكبر مني إلا بعشر سنوات على الأكثر.) "لماذا تريد أن تقتل اليهود؟". وكتب أحد مقالا عني عنونه "أستاذ الرعب". أظن أنهم تعبوا الآن لأنني ما زلت حيا بالرغم من كل ذلك.

ولكن أغرب الأشياء في رأيي هو عدد الناس، معظمهم يهود في الواقع، الذين كانوا يريدون المجيء إلى بيتي أو مشاهدتي خلال وجبة أكل ليروا كيف "أعيش". وهذا حدث لي فعلا زهاء ست مرات. هناك عالمة نفسانية يهودية التقيت بها في عدة مناظرات، خلال الثمانينات، حول حل النزاعات. أتت إلى نيويورك فكلمتني بالهاتف من جامعة نيويورك في المدينة وقالت: "هل أستطيع زيارتك؟" فوجئت بعض الشيء و أجبت: "نعم، بالتأكيد".

فقدمت ودخلت الشقة ورأت أن لي بيانو فقالت: "أوه! تعزف على البيان". رأت حولها بعض الشيء فأرادت أن ترى مكتبي. قلت: "لم لا تجلسين؟ أعني أن المسافة من وسط المدينة إلى هنا جد طويلة". فأجابت: "لا، لا. لابد أن أنصرف الآن. أتيت فقط لأعرف كيف تعيش". هناك شخص آخر من أحد دور النشر المرموقة. كنا بصدد صفقة فرفض أن يوقع العقدة لعدة أسابيع، ربما لأشهر، إلى أن أتيت إلى بوسطن لتناول وجبة العشاء معه كي يراني وأنا ملتزم بآداب المائدة.

ج ر: دعني أرد على هذا بقصة لي.

إ س: بالتأكيد.

ج ر: كان ذلك منذ ما يقرب من ثلاث سنوات. ألقيت محاضرة بجامعة يل (Yale)، وفي اليوم الموالي سألتني أحد الناقدات المرموقات، ونحن نتناول وجبة الغذاء، إن كنت أنحذر جزئيا من أصل يهودي. فلما أجبت أن السؤال غريب لكني سأجيب عنه بقولي أني يهودية خالصة، سألتها عن مغزى سؤالها. فقالت "لأننا اعتقدناك يهودية ولكن أدركنا أن هذا مستحيل لما استشهدت في محاضرتك بإدوارد سعيد".

إ س: هناك قصة أخرى. إنها فريدة ومثيرة للغاية. كان ذلك زهاء عشر سنوات لما ذهبت إلى جامعة إموري بأطلانطا لإلقاء بعض المحاضرات والمناظرات. وأنا داخل إلى القاعة لإحياء آخر مناظرة أوقفني شاب قال أنه يدرس الأدب الإنجليزي بالسلك الثالث، أتى ليحضر المناظرة ولاصطحابي إلى المطار بعدها. فلما شكرته وقلت له أن أحد الأساتذة سيقوم بذلك أجابني قائلا: "يعني الكثير بالنسبة لي أن أصطحبك إلى المطار؛ إنه امتياز شخصي نوعا ما". استفسرته عن ذلك (خصوصا أن معظم الناس يتجنبون مثل هذه المتاعب) قال لي بأنه كان طالبا بشعبة الإنجليزية بجامعة كولومبيا لكنه لم يسجل نفسه في أي أحد من دروسي: "لقد درست في مدرسة يهودية" (بما أن المدرسة في نيويورك، أتى عدد كبير من الطلبة إلى كولومبيا)، "حيث قال الحاخام أنك الشيطان وأن من الواجب علينا الابتعاد منك، لذا لم أحضر دروسك. والآن أحس أن ذلك كان بليدا وأنني إذا اصطحبتك إلى المطار سأعوض عن ذلك قليلا.

ج ر: سألعب الآن دور المدافع عن الشيطان. سبق وأن حذرتك من هذه المسألة، لذا لن تفاجأ. إنها مسألة اليهودية لأنها بالتأكيد تحجب عملك. ونجد هنا عددا من السخريات.

فقد فزت بانتقاداتك للسلطات الفلسطينية اليوم بلقب "صديق العدو الصهيوني". وما قد يخفى على الناس هنا هو أن مارتين بوبر رحل إلى بيتكم بعد أن اضطرت عائلتك لإخلائه سنة 1948. في نهاية "الاستشراق" تقول: "بحتمية لا مفر منها، أدركت أني قد كتبت تاريخا غريبا لمن يقتسم سرا معاداة الغرب للسامية. أود كثيرا أن تتكلم عن الصورة التي يظهر بها الانتماء اليهودي، الديانة اليهودية، و المعاداة للسامية في كتابتك، و طبعا لا يجب الخلط بين هاته النقط. هناك أشياء لا أرتاح لها. في "بدايات" مثلا تقول على غرار فيكو ـ وهو من بين كتابك المفضلين ـ "يجب أن نميز أساسا بين الغير اليهود، من جهة، الذين يتكهنون أو يتخيلون التكهن، والعبريين، من جهة أخرى، الذين حرم عليهم إلههم الحق التكهن". تقدم هذا كما لو كان سيحدث الكثير في الحقل السياسي. أعلم أنك اتهمت بمعاداتك للسامية، وليس هذا ما أفعله هنا، ولكن هل لك أن تتحدث قليلا عما تعنيه بالنسبة لك السامية أو السامي، وكيف تفرق، أو لا تفرق، بين ذلك ويهود مفكرين، علماء، أو أصدقاء الخ.

إ س: وجب ذكر شيئين توا. أولا أن الساميين يظهرون عند فيكو، ولكن في الحقيقة فيكو صهيوني كبير بمعنى أنه يفرق بين الشعب الذي يملك الكتاب حيث كتب كل شيء والذي يسميه مقدسا، وعالم غير اليهود أو العالم العلماني ـ وهذا كله ليتجنب بعض المشاكل التي قد تحدث مع الكنيسة، بما أنه كان يكتب بنابل في بداية القرن الثامن عشر. و بما أنه يهتم بالتاريخ و كيفية صنعه، فإنه يميز بين أهل الكتاب ـ وقد يكون هؤلاء المسيحيون، لكنه يقول بأنه يعني في هذه الحالة خاصة اليهود ـ الذين وضع لهم الله تاريخا (و هم حالة خاصة)، و باقي الإنسانية التي هي موضوع اهتمامه. فهي التي تجعل التاريخ ممكنا لأن الإنسان هو الذي يصنع التاريخ. هذا ما أخذه ماركس عن فيكو ـ فكرة أن الإنسان يصنع تاريخه.

لذلك فإن هذه التصنيفات الجنسية التي نجد في الأدب الأوروبي ابتداءا من أواخر القرن السادس عشر كانت تدهشني دائما: فكرة الساميين التي تعني أساسا اليهود ولكن ليس بالضرورة لأن خلال القرن التاسع عشر كانت كلمة 'سامي' تعني كل شخص في الشرق السامي. ففي "تاريخ الشعب السامي" أو في "مبادئ اللغات السامية" يتحدث رنان (Renan) عن العربية، العبرية، الآرامية الخ. وكل هذه اللغات تبدو لي كتراكيب أجنبية بحكم أنني نشأت في وسط مختلط. فالمدارس التي ذهبت إليها في فلسطين

ومصر كان فيها عرب، طبعا مسيحيون ومسلمون، يونانيون، إيطاليون، أرمينيون، يهود بما فيهم الشرقيون (كما كان يطلق عليهم آنذاك)، وبعض اليهود الأوروبيين. فكنت أرى هذا النوع من التراكيب في بعض الأدب المعادي للسامية مثلا وكنت أرى موازاة بينها ومفهوم "الشرقي"، لأن في كلتا الحالتين ما كان يعنيه الأوروبيون هم الشعوب الغريبة. يسأل دزرائيلي في جملة رائعة: "العرب، من هم؟" ويجيب "هم فقط يهود على ظهر حصان." لذا فهذا التفريق فيه نوع من الخلط كذلك. كنت طوال حياتي أحس كلما التقيت باليهود، أفرادا خلال الدراسة أو في المجتمع، بنوع من الميول إليهم. فقد كنا دائما نلقى معا كما يحدث الآن في السراء و الضراء. إنه أمر بالغ التعقيد لأنني من الأشخاص الناذرين الذين يقولون بأنه لا يمكن فصل تاريخنا اليوم كفلسطينيين عن تاريخ اليهود إلى حد أن فكرة التفريق أو الفصل التي هي موضوع عملية السلام والتي تهدف إلى إنشاء دولة فلسطينية من جهة ودولة يهودية من جهة أخرى هي فكرة فاشلة. لا يمكن لها إلا أن تفشل.

أتذكر سنة 1988 عندما شاركت في مناظرة نظمت تحت رعاية المجلة اليهودية 'تِكَون' وشارك فيها أيضا الفيلسوف اليهودي مايكل والتزر المشهور جدا في أمريكا وخصمي الكبير، وهو يساري مبدئيا ولكن صهيوني عنيد. ونظمت المناظرة لأن المجلس الوطني الفلسطيني الذي كنت عضوا فيه آنذاك، كان قد اعترف بإسرائيل وتكلم لأول مرة بوضوح عن الحاجة لإقامة دولتين كمخرج جديد. كنت ألح على أن الأمر ليس سهلا. فقال لي والتزر : "حسنا. أنصت، لقد اعترفت بإسرائيل. ومن الواضح أن لكم أو من الممكن أن تكون لكم دولتكم. فكف عن الكلام عن الماضي ولنتكلم عن المستقبل". وكثيرا ما يؤاخذ علي نقادي أني أتكلم دائما عن الماضي وأني أركز كثيرا على الظلم الذي لحق بالفلسطينيين الخ. وكان القراء يناهزون في اعتقادي التسعة و التسعين بالمائة من اليهود. فلما قال ذلك فتحت فمي لكنني لم أقل شيئا لأن في تلك اللحظة قامت امرأة من الحضور ـ لن أنسى هذا طالما حييت، كان اسمها هيلدا سيلفرشتاين ـ قامت و انطلقت ـ حسنا، لن أقول صارخة لأنها لم تكن تصرخ بالضبط ـ ولكنها انطلقت توشوش وتهاجم والتزر. كانت تقول: "كيف تجرأ على قول هذا لفلسطيني. كيف تجرأ على قول هذا لأي احد. لأجل كل شعوب العالم نطلب من العالم أن يتذكر ماضينا. و أنت تقول لفلسطيني أن ينسى الماضي؟ كيف تجرأ؟" كان شيئا خارقا للعادة. فلم ينطق بعدها بكلمة.

أخيرا، حتى لا نطيل كثيرا هنا، أخيرا هناك طبعا خلاف عميق بين العرب واليهود لن يتم تجاوزه في جيلنا، وأقول هذا بحزن عميق لأنه شيء يصعب تقبله.

ج ر: العرب و اليهود أم العرب والإسرائيليين؟

إ س: الاثنان، في الحقيقة. أظن الأمر واضح. أنا أعيش في أمريكا ومن الصعب أن نجد هنا يهوديا لا يتضامن مع إسرائيل. أتفهم. . .

ج ر: أعرف الكثير يا إدوارد لا يتضامنون مع إسرائيل.

إ س: حقا؟ صحيح؟

ج ر: نعم. نحن نتحدث مع أشخاص يختلفون. هذا واضح.

إ س: حسنا، دعيني أكمل هذا لو سمحت. فأنا أعارض فكرة الفصل إطلاقا كما أعارض مثلا معظم أشكال الوطنية، كما أعارض الانفصال والعزلة. فكرة أن هناك أناس يعيشون معا ـ هذا حدث في لبنان مثلا ـ عليهم فجأة أن ينفصلوا ونقول أن على المسيحيين أن يعيشوا هنا والمسلمين هناك واليهود هناك، هي فكرة بدائية وغير مقبولة. ومع ذلك أعتقد أن ثمة هوة أحدثها التاريخ وتتطلب معالجة كبيرة لتخطيها. فقد حدث الكثير بيننا ـ بين، حسنا لنقل بين العرب والإسرائيليين. لكني أشعر بهذا بحدة في أمريكا. سيقول البعض أنه أمر عاطفي ـ حين يبدأ البرنامج، لابد أن نذهب إلى مكان آخر. ويكون جوابي طبعا، اذهبوا إلى فلسطين، اذهبوا إلى إسرائيل. لكن لا تشردوا شعبا آخر لهذا الغرض. هذا هو المشكل. فقد اغتصبنا ودمر مجتمعنا. من الصعب أن ننسى هذا. وأخيرا، أعتقد أن الخطأ في مسلسل السلام، الخطأ السيكولوجي والثقافي الأساسي هو أن الإسرائيليين عزلوا تماما عن الأحداث التي جعلت وجود مجتمعهم في إسرائيل أمرا ممكنا. هناك استثناءات قليلة وواحد منها مثلا هو إسرائيل شاهاك (Israel Shahak) ، وهذا رائع، إذ أنه مستعد للتحدث عن ذلك.

ج ر: ولايبوويتز (Leibowtitz).

إ س: نعم، اعني تستطيع أن تعتمد عليهم، ليبا زيميل، فليسيا لاناجير إلخ. وفي أواخر حياته، ماتي بيليد الذي كان جنرالا في الجيش الإسرائيلي خلال حرب 1967.

ج ر: هذا يتوقف كذلك عن كيفية وضع الخطوط. كما تعلم، فقد كتبت إيلا شوهات عن التشكلة السياسية المختلفة التي ستكون إذا قام الفلسطينيون واليهود السيفارديون، وهم

أقلية أخرى مضطهدة داخل الجالية الإسرائيلية، بالبحث عن انتماء سياسي. كيف ستتغير الخريطة كلها.

يبدو لي أن إحدى الأشياء التي تحدثت عنها هو ما سأسميه البعد، لن أقول الغير المنطقي ولكن الغير المعقول للهوية السياسية. في كتابه الرائع "الطريق الثالث"، يقول رجاء شهادة، المحامي الفلسطيني الذي يعمل بالضفة الغربية، عن الإسرائيلي: "قد تكون أحلامي هي أحلامه". فهناك إذا شعور مرعب بتاريخ لا شعوري يعيد نفسه عبر الخط الأحمر في إسرائيل وفلسطين ومن خلال لا شعور المشاركين. إذا عدنا إلى عزمك على قول الحق للسلطة، على التعبير عن مطالب صريحة، عن إيقاف ظلم لكن دون نسيان الظلم الذي لحق باليهود؛ فإذا افترضنا أنه يمكن تحقيق هذا بصفة سليمة فماذا عن ذلك البعد اللاشعوري الذي يكاد يكون مرضيا للمسلسلات السياسية ؟

إ س: من الواضح أنه هذا بُعدٌ صعب للعيش وللعمل. على سبيل المثال، فقد أمضيت وقتا طويلا أنتقد إسرائيل و الإسرائيليين، لكن لابد أن نقول أن للفلسطينيين مسؤولية كبيرة. نعلم القليل عن إسرائيل، عن الحاجة لمخاطبة مجموعة من أنصار الضمير في إسرائيل، أو لتأسيس مثيل لها بين الفلسطينيين. هناك إما الموقف الاستعبادي، موقف البيض تجاه السود الممثل في عرفات و فريقه ـ لأن الإسرائيليين هم الأقوى ووراءهم أمريكا علينا أن نكون عبيدهم. فهذا غير صالح. أو الموقف الآخر الذي يعتبر الكل غرباء ودخلاء. فإذا خرجوا، كما خرج الصليبيون، فسيكون ذلك أفضل. وإذا لم يفعلوا فلن نتعامل معهم. ولا يصلح أي موقف من الاثنين.

ما لم نفعله في اعتقادي هو أن نفرض نفسنا على الضمير الإسرائيلي: الضمير لا الوعي. أعني أنهم واعون بنا ـ من الذي يبني المستوطنات اليوم، المستوطنات الإسرائيلية؟ الفلسطينيون هم الذين يبنونها، وأهم مقاولة للمستوطنات يملكها فلسطيني وهو وزير بالسلطة الفلسطينية. فهذا غير مقبول لأنه يتم توظيف السياسة والمصالح لإخفاء تواطؤ عميق وهذا ليس حلا. فنحن مستسلمون وضعفاء تجاه إسرائيل إلى حد أن أول أولوياتنا هي أن نمسك ونفهم أنفسنا وتاريخنا. إلى يومنا هذا لا يوجد تاريخ فلسطيني محترم كتبه الفلسطينيون. تاريخنا غير مسجل. هناك كتب و أبحاث مهمة عن تاريخ نابلس، تاريخ وجيز لحيفا، قليل هنا و هناك من النوع المختصر من تواريخ فلسطين. لكنك إذا أردت البحث عن مرجع

تاريخي للحركة الوطنية الفلسطينية، عليك أن تقرأ كتابا إسرائيليا، أو أمريكيا، أو إنجليزيا، أو ألمانيا. لكن فترة الإحساس بالذات الحقيقية ليست هي فترة خلق الوعي التي كانت خلال السبعينات و الثمانينات لما اعتقدنا أننا كنا نكافح على نهج فانون لكن الكفاح انتهى بسرعة. نحتاج إلى مؤسسات وإلى تعليم.

سأعطيك مثالا آخر. منذ شهرين قام 19.000 من مدرسي الابتدائي و الثانوي بالقطاع العام بإضراب عن العمل. لماذا؟ لأنهم كانوا يتقاضون أجورا تتراوح بين مائتين وثلاث مائة دولار، وهو نصف أجر سائق لمدير عام بالوزارة ـ هناك الآن 750 مديرا عاما تابعين لستة وعشرين وزارة فقط. وطبعا لا عمل لهم؛ فقط يتقاضون أجورهم من المال العام ليبقوا على إخلاصهم لعرفات. ماذا يحدث إذا؟ فالسلطة ترفض حتى محاورتهم. بدلا عن ذلك تقوم باعتقال خمسة وعشرين من قيادي الإضراب وبتعذيبهم. لا أحد منهم ـ وأفتخر بهذا كأستاذ ـ لا أحد منهم يستسلم. فيقول عرفات: "أحضروهم لي" فيؤتى بالقادة الخمسة والعشرين إلى مكتبه. فيلعنهم عرفات لمدة ساعة محاولا إرضاخهم، ويشتمهم بلغة قذرة ولا أخلاقية (كلمني مراسل Guardian/Observer، وهو ليس عربيا لكنه يتكلم العربية، على الهاتف من القدس وقال: "هل سمعت ما فعله بالأشخاص الخمسة و العشرين؟ أين تعلم لغة الشارع تلك؟") لم يرضخوا. بعد ذلك قبلوا بزيادة 2.5 أو 3 % في أجورهم، لكن 85 % منهم قالوا بأنهم سيعلنون الإضراب بمجرد انتهاء السنة الدراسية (يعني قبل إجراء الامتحانات). وهذا يعكس موقفا ضعيفا تجاه التعليم. هو مسار طويل وصعب جدا.

ج ر: تقول في بعد السماء الأخيرة: 'كلنا نتكلم عن العودة، لكن هل نعني بذلك العودة الحقيقية أم نتكلم عن ضرورة إعادة أنفسنا لأنفسنا. أظن أن هذه الأخيرة هي صميم الموضوع'. كما قلت عدة مرات، يسمح ليهود العالم بأسره أن يعودوا إلى إسرائيل، لكنك لا يمكنك أنت العودة الآن. وهنا يبدو أنك تقترح عودة نفسانية بدل العودة الحقيقية الملموسة. هل لك أن توضح ما تعنيه بذلك.

إ س: لا أدري كم عدد الناس الذين يعرفون هذا، ولكن سأقول أن من المرجح هناك على الأقل 55% من الفلسطينيين لا يقطنون بفلسطين، أو بفلسطين التاريخية، سواء كان ذلك داخل إسرائيل كمواطنين إسرائيليين أو بالضفة الغربية و غزة. هناك إذا جالية كبيرة مكونة من لاجئين من مختلف الأصناف. البعض مثلا في لبنان ـ 300 أو 400 ألف ـ فقراء

جدا، غير قادرين على العمل، ولا على السفر، ولا حتى على الحركة. إنهم معذبو الأرض، ومسلسل السلام لا يخصهم. هناك أيضا 800 إلى 900 ألف بسوريا، بعضهم أغنياء لكن أغلبهم لاجئون فقراء؛ 1.2 مليون بالأردن؛ 130 إلى 140 ألف بمصر، وهكذا في العالم العربي بأسره. في أوروبا الغربية، الولايات المتحدة، وفي أمريكا اللاتينية هناك عدد لا يستهان به من الفلسطينيين، قد يكون نصف المليون أو أكثر. فبالنسبة لمعظمهم فكرة العودة، أو العودة ـ وهذا يصعب قوله ـ باتت أمرا مستبعدا خلال حياتهم. وكثير من الأجيال الصاعدة لم يعيشوا أبدا في فلسطين. فإما أنهم لا يعرفونها أو يعرفونها فقط من خلال والديهم. والمثير هو أنهم لازالوا يحتفظون باللكنة وبأصلهم. ربما أنهم لم يذهبوا إلى هناك قط، لكنهم يقولون هم من الناصرة أو من رام الله أو غيرها. فذلك الإحساس بعلاقة من نوع ما هو من جهة مجازي، لكنه من جهة أخرى متصل بأفراد العائلة الذين بقوا هناك، بأصدقاء وأقرباء. على عكس ذلك، هناك في إسرائيل قانون العودة الذي يعطي لكل يهودي أينما كان الحق أن يكون مواطنا إسرائيليا. ليس هناك أي شيء من هذا القبيل بالنسبة للفلسطينيين. وإذا حدثت معجزة وسمح لهم بالعودة إلى وطنهم، لا أدري ـ ولا أعرف أحدا يعلم ـ كم هو عدد الفلسطينيين الذين سيعودون. فإذا مسألة عودة حقيقية بالنسبة لي هي شيء مؤجل. لا مجال للعودة الآن ولست متأكدا أنني أرغب فيها. وقد أكون حالة نموذجية. ربما هناك عدد من الفلسطينيين مثلي.

لكن ما تعنيه العودة بالنسبة لي هي العودة إلى النفس، أي العودة إلى التاريخ حتى نفهم ما حدث بالضبط ولماذا حدث، ومن نحن. أننا شعب من تلك الأرض، ربما لا نعيش هناك، لكن لنا حقوقا تاريخية و جذورا. سيبقى الكثير من شعبنا يسكن هناك. لكن لدينا وعي مشترك بذاتنا كواحدة من أهم التجارب في اعتقادي ـ لا أقول أهمها ـ خلال القرن العشرين للاغتصاب، المنفى، والهجرة. ليس فقط لأن التجربة مرتبطة بالأرض المقدسة، وهذا محمل بشتى المعاني، لكن أيضا لأنها جزء من تجربة القرن العشرين تلك. أحس أنني حاولت دائما أن أأكد على ذلك. حاولت الكلام عن تجربتنا، حين نتعذب ونعاني من رعب النفي واغتصاب ممتلكاتنا وهضم حقوقنا. يكتب لي بعض الناس ليقولوا أنهم لا يملكون جواز السفر. فمن يعيش بالضفة الغربية يكتب له على جواز السفر "هوية غير مؤكدة أو غير معروفة". أما اللاجئون في لبنان فتعطى لهم ورقة يكتب عليها مقابل الجنسية "دون"،

أما الاسم فلا يذكر أبدا. حين ترى الفلسطينيين دائما كما أفعل، يصعب القول بأن ذلك مجازي لأنه مرعب ومعاش. يجب ألا ننسى ذلك. وعلينا أن نشيده فوق أطلال تاريخ وطننا، شعورا بهدف مشترك، وهذا لا نملكه بعد. لا ندري ماذا نفعل الآن.

ج ر: كيف يمكن التوفيق بين ذلك المسار وفكرة الاستقلال؟ فأنت تستشهد بمحمد إقبال في هذا الصدد و تستعمل تعبيره "مرض السلطة". فهل يمكنك تصور شكل للسلطة التنفيذية يكون لطيفا وغير جبري؟ تقترح في "تفاصيل موسيقية" فكرة مفادها أن موسيقى شتراوس تعطي بتكرارها، بتخيلاتها وتجولاتها بديلا عن "سلطة تنفيذية وإدارية أكثر علنية". على المستوى الشخصي، قلت "لم أجد أبدا أي متعة في أن أكون قريبا من السلطة." هل فكرة سلطة غير مَرَضية مجرد تناقض في المصطلحات؟

إ س: أظن ذلك. لا أستطيع تصورها. لنتكلم بشكل طوباوي بما أنك ذكرت اليهود الشرقيين في إسرائيل. أعتقد أن أحسن آمالنا هو صراع مشترك ضد اليهود الإسرائيليين في فلسطين التاريخية لابتكار طريقة للتعايش ذات حد أدنى من الجبرية ـ لا توجد دولة غير جبرية ـ سوءا كان ذلك من خلال أقاليم على نحو ما فعله السويسريون أو من خلال شكل آخر. أما فكرة الفصل في زمننا هذا فهي، في تقديري، غير صالحة ولا يمكن تطبيقها. بالنسبة للإسرائيليين نحن دائما غرباء وكلما قل عددنا كان ذلك أفضل، وأفضلنا أولئك الذين لا يرونهم أبدا. ومن هنا فكرة تلك الطرق على الضفة الغربية التي يطلق عليها الطرق الجانبية. والمدهش هنا هو أن ما يفعله الإسرائيليون بالضفة الغربية وغزة يعيد حقا تجربة الأبرتايد وما فعلته الولايات المتحدة مع الأمريكيين الأصليين: وضعوهم داخل محميات أو نحّوهم ـ وهذا لم يفعله الإسرائيليون، ولكن أبعدوهم قدر الإمكان ليبعدوا المشكل كذلك. فالأمل هنا هو أن نخرج من هذه الحظائر المسيجة ونفكر في طريقة للتعايش مع الإسرائيليين الذين يهمهم هذا. أظن أنه يمكن تحقيق أكثر من هذا عندما يحين الوقت.

ج ر: سأضيف سؤالين. ما كنت لأغفل الأول رغم أنني لا أستطيع طرحه إلا بطريقة تلميحية. كيف تفسر ندرة النساء في كتاباتك؟ فأفكارك توحي بتشبعك بكتابات فيكو، أويرباخ، سبيتزر وغيرهم. أعجبت لما علمت بالبحث الجدي الذي أجريته بخصوص الراقصة تحية كريوكا، ولكن هل هناك نساء تستقي منهن بعض أفكارك؟ لن يكون الجواب جاين

أوستن (Jane Austene) أو جورج إيليوت (George Eliot) لأن ف. ر. ليفس (F R Leavis) أدخلهما في التراث العظيم.

إ س: تعنين إذن أنهما جيدتان؟

ج ر: لا بل أريدك أن تقول شيئا عن ذلك. بما أنني من بين أكبر المعجبين بك، كما تعلم، فهذا واضح.

إ س: حسنا، بدأت بتحية كريوكا، وهي لها تأثير كبير على حياتي المبكرة. حسنا، لا، أكره هذا بعض الشيء، أن اكون ملزما بإعطاء لائحة للمهتمين بقضية المرأة المصادق عليهم.

ج ر: لا، لا أريد لائحة؛ هذا ليس جوابا. أريدك أن تقول لماذا، في نظرك، هناك القليل جدا ممن لهن علاقة بتربيتك أو بغيرها.

إ س: حسنا، الأمر كذلك بالتأكيد. لكن لا تنسي في الموسيقى مثلا ـ وقد كتبت عن هذا مؤخرا ـ هناك ذلك العالم المذكر الهائل. فقد خطر لي هذا حين قرأت أول مرة "الملحنين العظام" لسكموند سبيث وعمري لم يتجاوز الثانية عشرة. كان أول الكتب التي قرأتها عن الموسيقى وكان يعرف ب "مفتش الرنة". بمجرد ما رأيت العنوان 'الملحنين العظام' ظننت، وكنت محقا، أنهم كلهم رجالا. وأنا أكبُر، كان لقائي الوحيد مع ملحنة، فيلم قدمته خلال مهرجان نيويورك للسينما السنة الماضية عنوانه "أغنية لا تنسى" وتقوم فيه كثرين هيبورن بدور كلارا ويك، كلارا شومان. وكان ذلك هو تصوري للمرأة الملحنة، لكني لم أستطع أن أفصلها عن كثرين هيبورن لأنني لم أكن أعرف شيئا عن موسيقى كلارا شومان باستثناء بعض النغمات التي أدخل عليها شومان بعض التغييرات.

كنت أدرس دائما في مدارس للذكور وكانت الأخلاقيات ـ أظن يجب أن تلومي البريطانيين على ذلك ـ مذكرة جدا. خلال تعليمي العالي، لم يكن هناك نساء طلبة ولا أساتذة، سواءا في برنستون حيث كنت طالبا في الإجازة أو في هارفارد. كان أول أكاديمي مشهور التقيته جاكلين دو روميلي وهي متخصصة في العصر الكلاسيكي وعضوة بكوليج فرنسا. لم أكن أعرفها آنذاك لكني استمعت لمحاضرتها وكانت منشطة ومثيرة لأنها كسرت الرتابة. فحاولت أن أكون نفسي، متأخرا لا محال، في تاريخ وكتابات النساء عن

نساء السنوات الأخيرة. لكن في الحقيقة تجاربي التي أرتاح لها والتي كتبت عنها الكثير حددت وشكلت من طرف الرجال.

ج ر: هذا ليس لتيسير الأمر عليك، ولكن عندما أتم ابن عمي تعليمه الابتدائي ليلتحق بكليفتون قال له المدير: "عندما تغادر هذه المدرسة ستلتقي بشبان آخرين اسمهم البنات" من الواضح أنك عشت مثل هذه المواقف.

سؤال أخير. وجودك بإنجلترا هو لتدشين محاضرات إمبسون في جامعة كامبريد ج. اخترت أن تتكلم عن "الانتهاك والسلطة في الأوبرا". كنت محظوظة إذ استمعت لأولى هذه المحاضرات حين ألقيتها في كوليج فرنسا. تتكلم عن رؤية موزار لهوية الإنسان المتقلبة والغير المميزة ورأيه أن استقرار الزواج والأعراف الاجتماعية التي تتحكم في حياة البشر لا يمكن تطبيقها لأن الحياة نفسها غير مستقرة ومعقدة. ظننتك تعني أن ما فهمه موزار بخصوص الموت يشكك في الادعاءات، في اليقين المزيف والقاتل للأعراف الاجتماعية والترتيبات البشرية التقليدية. كانت تلك انطلاقة جديدة لعملك، ملهمة ومحركة للمشاعر. كيف يمكن الربط بين هذه البصيرة ونوع الرؤية السياسية والآمال التي تعقدها على المستقبل.

إ س: لا أظن هذا ممكنا. ولكنها موجودة. أعرف ذلك لأنني أحس ـ ولا أرى مانعا أن أتحدث عن هذا أمام الملء ـ بل أحسست في السنوات الأخيرة بعبء الأخلاق. أعتقد أن موزار كان على حق إذ أني أحس بالعجلة، بإسراعي نحو النهاية. يكاد يكون ذلك في الأساس شوبنهاوريا، أننا نتجه نحو كتلة يصعب تمييزها، تغلي وتتغير باستمرار. وهذا حقا جزء مما أكتب عنه. من بين الأسباب لهذا ـ أظن أن هذا آخر ما سأقوله الآن، حتى نترك بعض الوقت للأسئلة، إذا كان الناس يرغبون في ذلك ـ أني صرت قلقا بخصوص فكرة ومشروع الهوية: الفكرة التي أثارت اهتماما كبيرا في الولايات المتحدة خلال الستينيات والحاضرة أيضا في الرجوع إلى الإسلام في العالم العربي وفي أرجاء أخرى، أن على الناس أن يركزوا على أنفسهم وأصلهم ليتعرفوا على أجدادهم ـ مثل الكتاب والبرنامج التلفزي "جذور". أظن ذلك مملا للغاية وخاطئا. أعتقد بأن ذلك آخر ما يجب أن ننشغل به. الأهم هو أن نحاول أن نتطلع إلى ما وراء الهوية، أيا كان ذلك: قد يكون ذلك هو الموت؛ قد تكون حالة وعي مختلفة تصلنا بالآخرين أكثر مما اعتدناه؛ وقد تكون أيضا حالة نسيان نحتاج لها جميعا في وقت معين ـ فقط أن ننسى.